الاسم: زين الدين اللقب: لشخب

جامعة الانتماء: جامعة الحاج لخضر باتنة 1

الدرجة العلمية: دكتوراه علوم في العلوم الإسلامية. التخصص: كتاب وسنة

البريد الإلكتروني: zinolach1mj@gmail.com

عنوان المداخلة: منهج التحليل الأنثربولوجي للقرآن الكريم بين إمكانية التوظيف ومشكلات التأنيس.

مقدمة:

يعد التساند الوظيفي بين العلوم الإسلامية والإنسانية في خدمة القرآن الكريم ضرورة ملحة من أجل تحقيق تجديد منهجي المنشود في الدرس القرآني المعاصر، وقد بدأت معالم هذا المنهج في الدرس التفسيري المعاصر مع مدرسة المنار العقلية من خلال بيانها للسنن الاجتماعية في القرآن الكريم وذلك من أجل جعل الدرس التفسيري منطلقا لعلاج مشكلات التخلف والتبعية التي أضحت تعاني منها الأمة الإسلامية في العصر الحديث، ولكن السرعة التي تطورت بها مناهج العلوم الاجتماعية جعل المناهج المنبثقة عنها تكتسب آليات منهجية جديدة تحتم على الباحث المسلم ضرورة مواكبتها؛ ومعرفة التطور الحاصل فيها تحقيقا لهذا التساند.

في المقابل من ذلك كانت العلوم الاجتماعية في سياقها التداولي الغربي تحقق تقدّما في سبيل فهم الظواهر الاجتماعية ودراستها وفق أسس علمية قصد إعطاء تفسيرات لهذه الظواهر بصورة تساهم في المنجز الحضاري الغربي وترقية مجتمعاته، وقد كان علم الأنثربولوجيا الثقافي يساهم في ذلك المنجز بصورة جلية من خلال بيانه للعلاقة بين الإنسان والأنماط الثقافية المحيطة به، مسمتدا في ذلك مادته من علم الأعراق والآثار واللغويات محققا في ذلك تساندا معرفيا بين هذه الفروع المعرفية، ويجمع في ذلك بين المعرفة التخصصية والتجسير المعرفي الذي يقدّم بعد ذلك استفادة أكبر من التراكم المعرفي الحاصل في فروع معرفية مختلفة.

إن الناظر في القرآن الكريم يلحظ اهتماما بالغا بالظاهرة الإنسانية وارتباطها بسياقاتها الثقافية، فالقرآن الكريم رباني المصدر ولكنه في ذات الوقت إنساني التلقي خاصة أنه المخاطب به ابتداء على أساس كونه بيانا للناس، فقد جاء لتعريف الإنسان بخالقه وعلاقته بغيره من المخلوقات بالإضافة إلى تعريف الإنسان بذاته وحقيقة وجوده، ومن خلال كل ما سبق ذكره ينطلق هذا البحث من الإشكالية التالية:

ما مدى إمكانية إعمال منهج التحليل الأنثربولوجي في الدرس القرآني؟ وما حدود هذا الإعمال ومجالاته؟ وكيف يمكن التخلص من مأزق تأنيس النص القرآني أثناء ذلك؟

إن أهمية هذا الموضوع لا تنطلق من افتراض غير متحقق في الواقع، بل إن هذا التوظيف قد تم بالفعل على مستوى الفهم والممارسة في مجال الدرس القرآني، وما دام هناك توظيف عملي لهذا المنهج فإن واجب النظر فيه ودراسته بالتحليل والنقد تكتسي أهمية بالغة عند كل مشتغل بالدرس القرآني وآفاق التجديد فيه على مستوى المنهج والمضمون. وذلك من خلال منهج الوصف والتحليل المفضيان إلى النقد والتقويم الذين يتحقق بهما الغرض من هذا البحث.

وإن هذا المسلك لا ينطلق من محض تأمّل شخصي؛ إذ يستند بادئ الرأي ومنتهاه إلى جملة من الدراسات التي تشترك معه في هذا الهم المعرفي، ومن ذلك دراسة البوسني"صفوت مصطفى خليلوفيتش" الموسومة بـ: الإنسان في القرآن مدخل لدراسة الأنثربولوجيا القرآنية، وكذا مقال الباحث السوري عبد الرحمن الحاج بعنوان : "التحليل الأنثربولوجي اللساني للقرآن"، بالإضافة إلى جمع شتات المواقف الحداثية من توظيف الدراسة الأنثربولوجية في قراءة النص القرآني كما هو الحال عند أركون وطيب تيزيني اللذين يظهر من قراءتهما توظيف هذا المنهج ضمن قراءتهم الحداثية للنص القرآني، بالإضافة إلى الدراسات النقدية التي تناولت المنجز الحداثي بالدراسة والتحليل.

ومن أجل دراسة هذا الموضوع توزعت مادته المعرفية على ثلاثة عناصر بالإضافة إلى المقدمة والخاتمة، تناول في البداية جملة من القضايا التأسيسية ترتبط بنصية القرآن الكريم والمنهج الأنثربولوجي واستراتيجية التأنيس والتي تتمثل متغيرات الدراسة التي لا بد من ضبطها بصورة تخدم متطلبات البحث، ثم تناولت الدراسة تطبيق المنهج الأنثربولوجي في نماذج معرفية حداثية كما هو الحال عند أركون وطيب تيزيني وكذا دراسات غير حداثية وفق مسلك النمذجة الذي لا يعني بالضرورة استيعاب كل النماذج ، وإنما من منطلق اختيار، بما يحقق تساندا معرفيا بين العلوم والمعارف، والتي تحقق في نهاية المطاف بداية استصلاح معرفي.

أولا: الإطار المفاهيمي للدراسة (نصية القرآن – التحليل الأنثربولوجي – التأنيس):

يعد ضبط المصطلحات والتصورات من أهم المنطلقات النظرية التي تساعد في تحقيق تقارب بين الرؤى والتصوّرات بين فروع المعرفة، سواء تلك المتعلقة بالوحي

أو المتعلقة بالظاهرة الإنسانية، وهذا من منطلق أن علوم الوحي جاءت لهداية الانسان وتبصيره بالقضايا الوجودية الكبرى، ومن هنا ستحاول الدراسة ابتداء ضبط متغيرات الدراسة التي تتعلق بها قضية توظيف المنهج الأنثربولوجي في قراءة النص القرآني.

1- القرآن الكريم بين إلهية المصدر ومقصد الإفهام للبشر:

لا ينبغي أن يعزب عن الأذهان أهمية استحضار المصدرية الإلهية للقرآن الكريم أثناء التعامل مع كل ما له علاقة به من علوم وقضايا، ذلك أن قضايا الإعجاز والغيب والنبوة لا يمكن أن تستوعب إلا إذا اعتُبِرَ القرآن الكريم نصّا إلهيّا نزل بلسان عربي مبين، ومن مقتضيات ذلك أيضا أن فهم القرآن يقتضي الإدراك الصحيح لعدم تعارض مصدريته الإلهية مع قدرة البشر على فهمه، وذلك أن القرآن الكريم نزل وفق قوانين العربية وقواعدها الصرفية والأسلوبية مع استصحاب كونه نصا إلهيا ما التزم ذلك إلا بغرض إفهام العرب الذين نزل فيهم القرآن هذه الرسالة الربانية، وهذا المعنى أشار إليه الشاطبي في الموافقات في النوع الثاني من كتاب المقاصد (قصد الشارع في وضع الشريعة للإفهام) حيث يقول: "فإن قلنا إن القرآن الكريم نزل بلسان عربي وإنه عربي وإنه لا عُجمة فيه، فبمعنى أنه أنزل على لسان معهود العرب في ألفاظها الخاصة وأساليب معانيها وأنه فيما فُطرت عليه من لسانها تخاطب بالعام يراد به ظاهره، وبالعام يراد به العام في وجه والخاص في وجه، وبالعام يراد به الخاص ....وكل هذا معروف عندها لا ترتاب في شيء منه هي ولا من تعلّق بعلم كلامها، فإذا كان كذلك فالقرآن في معانيه وأساليبه على هذا الترتيب"[1]، وبطبيعة الحال فإن كل هذا لا ينزع عنه كونه كلام الله المتسم بخاصية الإعجاز الذي يجعله يصل إلى أقصى درجات الغنى الدلالي الذي يفوق قدرة البشر.[2]، ولعل من أبرز مكامن الإعجاز أن يكون القرآن الكريم وفق معهود العرب في الخطاب وسننها في الكلام، وعلى الرغم من ذلك يعجز أهل الفصاحة والبيان منهم عن الإتيان بمثله على الرغم من تحدي القرآن لهم بأن يأتوا بسورة من مثله.

لا ينبغي أن يفهم من هذه المصدرية الإلهية أن القرآن الكريم ما دام متصفا بذلك أنه فوق قدرة الإدراك البشري على الفهم من مقتضيات ذلك أنه لا يمكن استيعاب أحكامه

---

[1] - أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الأحكام، ضبط وتعليق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان،ط1997،1 م، الخُبر، السعودية، ج2، ص103، 104.

[2] - كمال الدين إمام، فقه السياق وحدود التأويل، ص469.

وتشريعاته عند من يعتبرون أن القرآن الكريم ما هو إلا نسخة بشرية من الكتاب الإلهي[3] كما يزعم الخطاب الحداثي العربي المتأثر بالطرح الاستشراقي، وذلك من خلال رصد جملة من المواقف الحداثية حول هذه القضية من خلال مشاريع القراءة عند محمد أركون، ونصر أبو زيد، ومحمد شحرور نلتمس نوعا من محاولة خلع القداسة عن النص القرآني وإحداث قطيعة معه بحجة أنه غير قابل للفهم انطلاقا من مصدريته في حد ذاتها، وكل ذلك كما يقول محمد كمال الدين إمام يستهدف: "القطيعة بين النص وبنيته الداخلية وطبيعته الذاتية تحت وهم أن الإنسان لا يمتلك الحقيقة لأن ما لديه هي نسخ بشرية من الكتاب الإلهي"[4] هذه النسخة – حسب زعمهم - التي لا ترقى أن تكون مجسدة للكلام الإلهي في صورة تتجلى فيها محاولة الحط من القيمة القرآن الكريم بحجة أنه متعال عن الفهم البشري وفوق دائرة إدراكه بصورة تتعارض مع مقصد الإفهام الذي أقره علماء الشريعة.

2 – التحليل الأنثربولوجي:

يعد المنهج الأنثربولوجي من الكيفية التي تعتمد بالأساس على المعاينة الميدانية للجوانب المجتمعية والثقافية، وذلك انطلاقا من دراسة عينات اجتماعية من الفئة المستهدفة، وهو ما يتطلب توظيف جملة من الأدوات التحليلية التطبيقية، وبذلك تخرج الدراسة الأنثربولوجية من إطارها النظري إلى التطبيق من خلال هذه الأدوات التي يستعملها الباحث في هذا المجال.

توصف الأنثربولوجيا بأنها دراسة للإنسان في شتى أبعاده البيوفيزيائية والاجتماعية والثقافية، وعلى هذا الأساس فهي علم شامل لجملة من الميادين والمجالات المتباينة بعضها عن بعض مثل: علم التشريح وتاريخ تطوّر الجنس البشري والجماعات العرقية، وكذا دراسة النظم الاجتماعية المتعلقة بالسياسة والاقتصاد والدين والقانون، بالإضافة إلى دراسة الإبداع الإنساني في مجالات الثقافة المتنوعة[5]، وعلى هذا الأساس تشكّل الأنثربولوجيا قطاعا معرفيا واسعا لجملة من الميادين المختلفة، ولا تقتصر على زاوية واحدة من زوايا النظر.

---

[3] - كمال الدين إمام، فقه السياق وحدود التأويل، أعمال الندوة الدولية (التأويل مقتضيات السياق وسؤال المرجعية) التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط1، 2014، ص468.

[4] - كمال الدين إمام، نفس المرجع السابق، ص469.

[5]- عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثربولوجيا)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، د.ط، دمشق، سوريا، 2004م، ص14.

وانطلاقا من كل ما سبق فإن أهم ما يميّز المنهج الأنثربولوجي هو تأكيده على دراسة الكائن البشري من كل وجوهه وبأبعاده المختلفة، فالإنسان في نظر الإناسة كائن طبيعي واجتماعي ولساني وسياسي وتاريخي ونفسي وعاقل ومتخيل وعاطفي... وهدف عالم الأنثربولوجيا يتمثّل في تجميع المعرفة المتعلقة بالإنسان من كافة جوانبه من خلال تقديم فهم مترابط حول الإنسان[6]، فالمهمة التي ينبري لها المهتم بهذا المنهج هي تنظيم هذه المعرفة المتعلقة بالإنسان بما يحقق فهما أكثر عمقا للظاهرة الإنسانية وفق بناء منهجي مرتكز على أسس علمية.

3- مفهوم الأنسنة (التأنيس):

يعتبر لالاند في موسوعته أن أشمل تعريفات الأنسنة هو كونها: "مركزية إنسانية المتروية، تنطلق من معرفة الإنسان، وموضوعها تقويم الإنسان وتقييمه؛ - استبعاد كل ما من شأنه تغريبه عن ذاته، سواء بإخضاعه لحقائق ولقوى خارقة للطبيعة البشرية، أم بتشويهه من خلال استعماله استعمالا دونيا، دون الطبيعة البشرية"[7]، وعلى هذا الأساس فإن فكرة الأنسنة تنطلق بالأساس من فكرة مركزية الإنسان واستبعاد كل ما من شأنه أن ينازعه في هذه المركزية.

لقد ارتبط مفهوم الأنسنة بعصر النهضة في أوروبا خلال القرن الخامس عشر والسادس عشر ميلادي، وذلك عندما بدأ التحول من الدين إلى العلم باسم العلمانية، ومن الألوهية إلى الإنسان من خلال التأكيد على مركزيته، ومن التركيز على الماضي إلى بناء الحاضر واستشراف المستقبل، وذلك على يد العديد من الحركات الإصلاحية التي دعت إلى رفض احتكار تفسير الكتاب المقدس الذي مارسته الكنيسة لقرون طويلة[8]. وهو ما يمثّل ثورة على الكنيسة الممثلة للخطاب الديني الرسمي في أوروبا كنوع من أنواع الرفض لآرائها وأفكارها، ومع فقدان الكنيسة تأثيرها في الحياة اليومية صارت المركزية الإلهية تفقد سيطرها تدريجيا على الوعي الجمعي، في المقابل من ذلك كانت فكرة المركزية الإنسان هي أهم القضايا الوجودية في العالم الغربي بوجه عام.

وتظهر فكرة الأنسنة في سياق التداول العربي من خلال تأثّر الحداثة العربية بالواقع الحداثي الغربي في عصور نهضته وهو مايستلزم بالضوورة تبنّي فكرة الأنسنة،

---

[6] - سارة عبدو، المقاربة الأنثربولوجية للظاهرة القرآنية في الفكر الحداثي لمحمد أركون (بحث في المقدمات والمقاصد)، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الوادي، العدد: 1، المجلد 19، ص27.

[7] - أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 2001م، ص569

[8] - مصطفى كيحل، الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2011م، ص58.

ويظهر ذلك بشكل واضح عند محمد أركون في أطروحته للدكتوراه التي كانت بعنوان: "نزعة الأنسنة في الفكر العربي: جيل مسكوية والتوحيدي" حيث حاول أن يبين أن نزعة الأنسنة في الفكر العربي تعود جذورها إلى القرن الرابع الهجري مع التوحيدي ومسكويه، وأنها كانت سابقة تاريخيا عن الأنسنة في الغرب التي ظهرت في قرون متأخرة[9]. ومن هنا فقد كانت الأنسنة خطة معلنة ومصرّحا بها في كتابات أصحاب القراءة الحداثية، وقد حاولت من خلالها نزع القداسة عن القرآن الكريم، ويظهر ذلك بصورة جلية من خلال حذف عبارات التعظيم واستبدال مصطلحات متداولة بمصطلحات جديدة مثل: المدونة، النسخة الرسمية، وغيرها...، بالإضافة إلى استعمال مصطلحات النص القرآني والخطاب القرآني دون مراعاة خصوصيته على أساس كونه نصا إلهيا أو خطابا ربانيا.

ثانيا: إعمال منهج التحليل الأنثربولوجي في القراءة الحداثية للقرآن الكريم (مأزق التأنيس):

لقد استقطبت القراءة الحداثية للقرآن الكريم اهتمام الباحثين بعد تراجع الاستشراق في الدوائر المعرفية الغربية ، إذ تراجع الاستشراق البحثي تراجعا ملحوظا ليحل محله الاستشراق ذو بعد السياسي بالأساس، ولم يعد يهتم بدراسة الإسلام وأصوله بقدر ما أصبح يهمّه أن يصنع فهما جديدا للإسلام يخدم سياسته في المنطقة[10]، ومن هذا المنطلق أرادت القراءة الحداثية للقرآن الكريم أن تسد هذا الفراغ وأن تسوق لنفسها على أساس كونها قراءة بديلة للاستشراق؛ خاصة إن الكثير من روادها ممن تتلمذ على يد مستشرقين في الجامعات الغربية، ومن أهم التعريفات التي قدمت توصيفا لهذه القراءة نجد تعريف الفيلسوف المغربي "طه عبد الرحمن" الذي عدها " تفسيرات لآيات القرآن تخرج عن هذه الصفة الاعتقادية، وتتصف بضدها، الانتقاد، فالقراءات الحداثية لا تريد أن تحصِّل اعتقادا من الآيات القرآنية، وإنما تريد أن تمارس نقدها على هذه الآيات".[11] ومن جملة الآليات القرائية التي تؤسس عليها نقدها نجد الأنثربولوجيا بالإضافة إلى آليات أخرى مثل اللسانيات والنقد التاريخي.

1- المنهج الأنثربولوجي والإسلاميات التطبيقية في القراءة الأركونية للقرآن الكريم:

[9] - محمد أركون، نزعة الأنسنة في الفكر العربي: جيل مسكويه والتوحيدي، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقي، ط1، بيروت، لبنان، 1997م، ص14.

[10] - مصطفى الحسن، الدين والنص والحقيقة (قراءة تحليلية في فكر محمد أركون)، ط1، (بيروت، لبنان، الشبكة العربية للأبحاث 2012م)، ص79، 80.

[11] - طه عبد الرحمن، روح الحداثة (مدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية)، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 2006م، ص176.

لعل من نافلة القول بيان إن قراءة محمد أركون للقرآن الكريم تدخل ضمن مشروعه الذي سماه (الإسلاميات التطبيقية) بالاستناد إلى أفكار الفيلسوف الفرنسي "روجيه باستيد" Roger BASTID" وعالم الاجتماع الفرنسي "جورج بالانديه Georges BALANDIER"، ويعرّف محمد أركون الإسلاميات التطبيقية بأنها: "ممارسة علمية متعددة الاختصاصات، وهذا ناتج عن اهتماماتها المعاصرة ومخاطرها، وكذا المتطلبات الخاصة بموضوع دراستها"[12]، ويرتبط مشروع الإسلاميات التطبيقية بالأنثروبولوجيا ارتباطا وثيقا، خاصة إن علم الإناسة يتعدّى حدود الوصف إلى الدراسة المعمقة لأوصاف المجتمعات المدروسة، وعلى هذا الأساس تركز الإسلاميات التطبيقية بالاستناد على آليات البحث الأنثربولوجي على كل ما يرتبط بواقع المسلمين في الحياة المعاصرة واستحضار ما يتعلق به من تعاليم دينية من خلال وسائل الفكر العلمي الحديث بشقيه الاجتماعي والإنساني من جهة أخرى،[13] وانطلاقا من مشروع الإسلاميات التطبيقية يدعو "أركون" إلى إعادة قراءة النص القرآني بالاعتماد على المناهج الغربية من أجل تحصيل قراءة علمية لطبقات النص وتحقيق قراءة نقدية له، وفي هذا الصدد يقول محمد أركون: "وهكذا نطبق التحليل الألسني، والتحليل السيميائي الدلالي، والتحليل التاريخي، والتحليل الإجتماعي أو السوسيولوجي، والتحليل الأنثروبولوجي، والتحليل الفلسفي، وعلى هذا الأساس نحرر المجال أو نفسح المجال لولادة فكر تأويلي جديد للظاهرة الدينية"[14]. ولكنه لا يقدّم لنا في مشروعه كيفية الاستفادة من كل هذه الأصناف من التحليل وموقع كل منها ضمن ما يسمّيه الإسلاميات التطبيقية، ومن أهم تجليات المنهج الانثربولوجي في مشروعه القرائي للنص القرآني ما يلي:

أ- الحفر الأركيولوجي: ترتبط فكرة الحفر الأركيولوجي في سياق التداول الغربي بالفيلسوف الفرنسي "ميشال فوكو"،[15] ويزعم "محمد أركون" أنه يوظّف الحفر الأركيولوجي في سبيل معرفة المسافة بين النص القرآني على أساس كونه نصا تأسيسيا، والنصوص التفسيرية التي جاءت شارحة له ومفسرة لمعانيه والتي يسميها المدونات التفسيرية التي ألفها المسلمون على مر العصور، ويعطي محمد أركون مثالا على ذلك بتفسير الطبري وبنبرة تهكمية يصوّره على أنه كان يضع نقطتين على السطر ويعطي التفسير النهائي والمساوي لمراد الله عز وجل بالضبط، ثم يبيّن أن الطبري قد

---

[12] - محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ترجمة: هاشم صالح، ط3، ا لمركز الثقافي العربي، 1996م، ص57.

[13] - فارح مسرحي، الحداثة في فكر محمد أركون، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2006م، ص106، 107.

[14] - محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ترجمة: هاشم صالح، دار الطليعة، ط2، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 2005م، ص70.

[15] - وقد طبق ميشال فوكو الحفر الأركيولوجي على المعرفة بوجه عام ومن أشهر كتبه في ذلك كتاب جينيالوجيا المعرفة.

فسّر القرآن بحسب حاجيات المجتمع في القرن الثالث هجري وحسب المواقع الإيديولوجية والمذهبية التي تبناها، ومن ثّم على الدارس أن يدرك حجم المسافة المعنوية بين لحظة القرآن ولحظة الطبري،[16] ولذلك فهو يعتبر أن الحفر الأركيولوجي هو الذي يزيل الطبقات السطحية والوسطى - وبالطبع هو يتكلم عن التراث التفسيري بوجه عام- من أجل العودة إلى اللحظة التدشينية الأولى وهي نزول الوحي.[17] وإن هذا الموقف من التفسير الإسلامي خطوة مهمة أمام الأنسنة وهي التشكيك في كل العلوم الإسلامية التي تؤكد على إلهية النص القرآني، ومن ثم القضاء على المرجعيات الأصيلة للأمة التي تأخذ منها فهمها للقرآن الكريم.

ب - زحزحة القناعات حول طبيعة النص القرآني:

يتبنى محمد أركون في قراءته للنص الديني على فكرة زحزحة القناعات التي يصفها أنها كل تغيير يطرأ على الإشكاليات القديمة، أو إعطاء مقاربة جديدة للإشكاليات التقليدية، أو تقديم مقاربة جديدة للمشاكل المطروحة، تحلفي نهاية المطاف محل المقاربات السابقة، إما بإلغائها أو زحزحها من مكانها، والمشكل في مشروع أركون أن هذه الإشكالات التقليدية التي يتحدث عنها محمد أركون هي من صميم العقائد الإسلامية وليست من المسائل الفرعية التي يسع فيها الخلاف، ومن ذلك إيمان المسلم أن القرآن المكتوب في المصحف هو كلام الله والوحي والتدوين وغيرها من القضايا التي يدخلها في دائرة يسميها اللامفكر فيه، ويحاول - على حد زعمه- أن يطرح أسئلة لم يطرحها العقل المسلم، ولذلك نجد أنه يصف القرآن الموجود بين دفتي المصحف "بالمصحف الرسمي المغلق والذي استهلكته الأمة المفسِرة وعاشت عليه طيلة قرون"[18]، ويعتبر كذلك أن انتقال القرآن الكريم من حالته الشفوية إلى حالة المكتوب قد أدى إلى عملية الحذف والتغيير في النص القرآني من طرف السلطة الدينية بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم).[19] ومن الواضح أن استرتيجية الزحزحة تعد تكملة للحفر الأركيولوجي الذي يمارسه "أركون"، إذ الهدف من هذا الحفر هو تعرية المنظومة الفكرية من كل آليات القراءة الإسلامية التي من شأنها أن تمارس نقدها المعرفي على زحزحة القناعات التي يدعي أنه يمارسها

وعلى هذا الأساس فإن "أركون" يوظّف الأنثربولوجيا بغرض إقناع قارئه بفكرة أنسنة النص القرآني، وأنه تعرض لعوامل الحذف الأيديولوجي الذي مارسه الفاعلون

---

[16] - محمد أركون، الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ترجمة: هاشم صالح، ط4، دار الساقي، بيروت، لبنان، 2007م، ص229.

[17] - مصطفى كيحل، الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2011م، ص250.

[18] - محمد أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقي، ط1، بيروت، لبنان، 1999م، ص30.

[19] - للتوسع في هذه الأفكار أُنظر محمد أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، ص45، الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ص82، 86.

الاجتماعيون حسب زعمه، وهو مما أدى إلى تحول القرآن الكريم من نص إلهي متعال إلى نص بشري الذي تعرّض للحذف والتغيير البشري خاصة بعد انتقاله من الحالة الشفوية إلى المكتوبة كما يزعم[20]، ولذلك فلا وثوقية في مصدريته الإلهية، وعليه فلا بد أن يمارس عليه النقد كأي نص بشري آخر بخلع القداسة عنه - على حد زعمه - من أجل الوصول إلى قراءة علمية للقرآن الكريم.

2- النقد الأنثربولوجي لجمع القرآن الكريم عند طيب تيزيني:

لقد نظرت القراءة الحداثية إلى الخوارج والمعتزلة على أنها حركات مناوئة للخطاب الرسمي الذي حاول تغييبها وإقصاءها، ولذلك يلاحظ المتأمل أنهم جعلوا من الخلاف الدائر بين السنة والشيعة والخوارج دعامة مهمة يمكن الانطلاق منها لتأسيس العديد من القضايا التي يراد البرهنة عليها وبالأخص قضية تشكّل النص القرآني، وهذا ما نجده عند طيب تيزيني مستدلا بقول "هنري ماسيه" الذي يقول: " لقد رفض الخوارج مثلا السورة الثانية عشر... ومن ناحية أخرى فإن الشيعيين يؤكدون أن المقاطع التي تتعلق بعلي وعائلته قد حذفت بأمر عثمان... وما من شك - ويجب تكرار ذلك - في أن القرآن كما وصل إلينا لا يتضمن الوحي كله؛ ومقابل ذلك فقد ظهرت له بعض الإضافات التفسيرية والتذييلات".[21] وتتضح غرابة هذا القول إذا عُلِم أن السورة الثانية عشر في المصحف العثماني هي سورة يوسف[22] ولم يعرف عن الخوارج إنكار شيء من القرآن فضلا عن إنكار سورة بكاملها.

بالإضافة إلى ذلك يصوّر سيدنا عثمان (رضي الله عنه وأرضاه) في صورة الديكتاتور الذي يبحث عن السيطرة والهيمنة، ويسعى إلى إقصاء الآراء المخالفة له حيث يقول: " ومن الملاحظ أن تلك الظروف التي أحاطت بعملية جمع القرآن في مصحف واحد وتحريق ما تبقّى من المصاحف، كانت تشير إلى أن ربما كان يهدف

---

[20] - يتجاهل أركون أثناء زعمه هذا أن تناقل القرآن مشافهة وفق أسس علمية كان ولا يزال يندرج تحت علم أسسه الصحابة رضوان الله عليهم وطوره علماء الأمة جيلا بعد جيل ألا وهو علم القراءات وفي ذلك يقول الإمام ابن الجزري: " ثم إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على حفظ المصاحف والكتب وهذه أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة" (محمد ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تقديم: علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت لبنان، 1998م، ص12) ، وليس المقام هنا مقام الاستدلال على هذه الحقيقة المقررة وإنما لتبيين وضوح المسألة في تصور علمائنا أثناء إعطائهم الأولوية للمشافهة، وفي المقابل يظهر الخلط الكبير والتخبط أثناء التعامل مع هذه المسألة عند أركون وغيره ممن يتبنون هذا الرأي.

[21] - طيب تيزيني، النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة، دار الينابيع، د.ط، دمشق، سوريا، 1997م، ص386.

[22] - إذا كان تيزيني يقصد السورة الثانية عشر حسب ترتيب النزول، فإنه بالعودة إلى ترتيب نولدكه الذي نقله عنه بلاشير وأشاد به الجابري فإننا نجد أن السورة الثانية عشرة من حيث النزول هي سورة القارعة وبالنظر إلى هذه السورة لا يتضح سبب يسوغ إنكار الخوارج لها بالإضافة أنه لم يسمع قط بأن الخوارج ينكرون سورة من القرآن.

من وراء ذلك إلى تحقيق أمرين اثنين متضايفين، الأول منهما تمثّل في الحفاظ على الوحدة الدينية (الأيديولوجية) للمسلمين في الدولة الفتية المتعاظمة، حتى لو تم ذلك على أساس نص قام على أنقاض نصوص انتهى بها الأمر إلى (الطبخ)، أما الأمر الثاني فقد تجسّد في الطموح إلى الهيمنة الدينية (الأيديولوجية) السلطوية للطبقة الاجتماعية الجديدة الناهضة، التي استقت قيادتها من بني أمية المناهضة قبليا لنبي هاشم".[23]

إن هذا التحليل المعتمد على تأثير الأنماط الاجتماعية في تشكيل النص القرآني يستند بالأساس على أدوات التحليل من صميم الدراسة الأنثربولوجية، وذلك بالاستناد إلى نظرية بالانديه الأنثربولوجية من حيث كونها مرجعية أساسية غايتها الأساسية إخضاع التراثات الدينية إلى عملية أركيولوجية وفق التصور الذي يقدمه "فوكو" في هذا الصدد، ولكنها تنتهي في نهاية المطاف إلى أنسنة النص القرآني، وذلك على اعتبار خضوعه للظروف التي يفرضها السياق الاجتماعي في البيئة التي نزل بها، وعلى هذا الأساس يصبح التحليل الأنثربولوجي خاضعا للأيديولوجيا الذي انطلق منها أركون وتيزيني وغيرهما من الحداثيين، ولا يصدر من روح علمية توظف المنهج توظيفا محايدا وخادما لأغراض علمية بالأساس.

ثالثا: إعمال منهج التحليل الأنثربولوجي في الدراسات القرآنية خارج إيديولوجيا الحداثة (قراءة في نماذج):

من المعلوم أن المنهج العلمي إنما الغرض منه البحث عن الحقيقة وفق أسس علمية ومعرفية متينة، تمكن بعد ذلك من التأسيس العلمي للحقيقة القائم على البرهان والدليل، وهذا ما لا حظنا غيابه عند دراسة التوظيف الحداثي للمنهج الأنثربولوجي، ولكن ذلك لاينبغي أن يقود إلى رفض توظيف المنهج من أساسه، خاصة في ظل وجود نماذج وظفته بعيدا عن التوظيف الأيديولوجي، وتمكنت إلى حد ما من استثماره خدمة لأغراض معرفية، وتمكنت نسبيا من التوصل إلى نتائج معرفية ذات أهمية بادي الرأي، لكنها لا يعني أن ذلك يجعلها خارج دائرة النقد البناء الذي يساهم في تحقيق استصلاح نافع لهذه المناهج الحديثة، وستحاول الدراسة تقديم نموذجين للتحليل الأنثربولوجي بعيدا عن أيديولوجيا الحداثة.

1 – التحليل الأنثربولوجي اللساني في دراسات توشيهيكو إيزوتسو القرآنية:

[23] - طيب تيزيني، النص القرآني أمام مشكلة البنية والقراءة، دار الينابيع، د.ط، دمشق، سوريا، 1997م، ص402

ينطلق "إيزوتسو" من نظرية "ليو فايسجربر" التي صاغها حول التصوّر اللغوي للعالم[24] ، وهي تتفق إلى حد كبير مع مخرجات علم اللغة العرقي، وذلك وفق التصوّر الذي أسسه علم اللغويات "إدوارد سابيرEdward Sapir" في سنواته الأخيرة في الولايات المتحدة، ورغم وجود خصائص مميّزة لكل منهما إلا إنه يركّز على نقاط الاشتراك التي تخدم تحليله الدلالي[25]، ويبيّن "إيزوتسو" اعتماده على هذه النظرية حين قال: "وقد لاحظ "إدوارد سابير" مرارا أنه حتى أفعال الإدراك البسيطة تتحكّم بها على نطاق واسع الأنماط الاجتماعية للإيحاء بالمعنى، وهي تبعا لذلك نسبية من الوجهة الثقافية"[26]، ومن خلال هذا النص يبيّن "إيزوتسو" الدعامتين الأساسيتين اللتين تقوم عليهما نظرية الأنماط الثقافية واللغوية أو ما يصطلح عليه نظرية: (سابير وورف) إذ يرى كل منهما إن التطوّر الثقافي يظهر في المحتوى الدلالي للغة وهي الفكرة التي أكّدها سابير في أبحاثه، ويعد وورف من تلاميذ سابير، ووارث فكره في مجال علم الدلالة من خلال نظرية النسبية اللغوية التي تعد تطويرا لأفكار أستاذه سابير[27]، فالتأسيس النظري لهذه النظرية يستند إلى تجسير معرفي بين اللسانيات والأنثربولوجيا الثقافية.

وعلى الرغم من اختلاف بينهما في بسط أفكار هذه النظرية فإنها ترجع بجذورها الفلسفية إلى أفكار الفيلسوف الألماني "هامبولدت" بالاستناد إلى فكرتين مهمتين في هذه النظرية وهما: "الحتمية اللغوية" و"النسبية اللغوية"[28] و من خلال هذا الربط بين هذه الفلسفات والأفكار يحاول "إيزوتسو" تقديم تجسير تلتقي فيه هذه الأفكار والنظريات من أجل صياغة تصوّر للرؤية القرآنية للعالم، وذلك في مقابل الرؤية

---

[24]- نظرية التصور اللغوي للعالم عند ليو فسجربر: هي نظرية طورها انطلاقا من فلسفة ولهلام دلتاي، وقد نقل نظرية ارتباط اللغة بالثقافة من حيّز الدراسات الأنثربولوجية إلى حيز الدراسات اللسانية بعد أن تأثر بنظريات دي سوسير وخلاصة النظرية أن كل كلمة من كلمات اللغة تمثل بالأساس منظورا خاصا نرى فيه العالم، وما يسمى مفهوما ليس سوى بلورة لهذا المنظور الذاتي، والمنظور المقصود هنا اجتماعي لأنه ملكية مشتركة لجماعة كاملة (أُنظر عبد الرحمن الحاج، التحليل الأنثربولوجي اللساني للقرآن، ص10.)

[25]- توشيهيكو إيزوتسو، المفهومات الأخلاقية الدينية للقرآن، ترجمة: عيسى علي العاكوب، ط1، (دمشق، سوريا، دار نينوى، 2017م)، ص49.

[26]- توشيهيكو إيزوتسو، المرجع نفسه، ص60.

[27]- محي الدين محسب، اللغة والفكر والعالم، محي الدين محسب، اللغة والفكر والعالم، دراسة في النسبية اللغوية بين الفرضية والتحقق، د.ط، (القاهرة، مصر، مكتبة لبنان ناشرون والشركة المصرية العالمية للنشر،1998م)، ص21، 22.)

[28]- محي الدين محسب، اللغة والفكر والعالم، ص19.

السابقة لها وهي الرؤية الجاهلية للوجود والتي ارتبطت بتصوّر بدو الصحراء للحياة بعيدا عن الرؤية الشاملة التي عرضها القرآن الكريم في منظومته العقائدية والأخلاقية.

2- الصورة الأنثربولوجية للإنسان عند صفوت مصطفى خليلوفيتش:

هو أستاذ التفسير وعلوم القرآن والأنثربولوجيا القرآنية في كلية التربية الإسلامية في جامعة زنيتسا بالبوسة والهرسك، ومن الباحثين المسلمين الذين يسعون إلى تأسيس دراسات أنثربولوجية تنطلق من القرآن الكريم في حد ذاته، وعلى هذا الأساس يعرف "خليلوفيتش" الأنثربولوجيا قائلا: " علم الأنثربولوجيا هو العلم الذي يبحث في حياة الإنسان وثقافته وأوجه الاختلاف بين البشر فيها، ويعنى بمسائل مثل : كيف يعيش الإنسان؟ وماذا يفعل؟ وكيف يفكر؟ وكيف يتعامل مع بيئته؟ علاوة على ذلك يهتم علم الأنثربولوجيا بتطور الإنسان وكيف تنشأ المجتمعات الإنسانية وكيف تختفي؟ كما يعنى هذا العلم بحاضر ومستقبل الجنس البشري، وباختصار شديد يمكن تلخيص اهتمامات هذا العلم في سؤال واحد: ما الذي يعنيه أن تكون إنسانا"[29]، ومن خلال هذه الرؤية التبسيطية لعلم الأنثربولوجيا يحاول تقديم إجابات لهذا التصور الذي يقدمه من خلال القرآن الكريم، انطلاقا من الرؤية القرآنية لهذه الأسئلة التي تطرحها الأنثربولوجيا وفق التصور الذي قدّمه لها.

ومن جملة القضايا الأنثربولوجية التي حاول الإجابة عنها من خلال القرآن الكريم قضية طبيعة الإنسان ونشأته، الإنسان في القرآن الكريم، الإنسان والموت، أهمية الدعاء في حياة الإنسان، الإنسان والقرآن الكريم، الإنسان والخطيئة، وقد اعتمد على مسلك الجمع بين الطرح الأنثربولوجي لهذه القضايا والرؤية المستمدة من القرآن الكريم حول هذه القضايا، والغرض من ذلك بالأساس هو بيان أن القرآن الكريم أساس للبحوث والتأملات المتعلقة بأصول الدين والأنثربولوجيا، والتي قلّ حضورها عندنا كمسلمين، فالإنسان يطور وعيه وإدراكه للعالم ويكتسب الخبرات ولكنه لا يستطيع ان يبقى بمفرده منعزلا دون قيادة روحية ودون عون الله ومدده[30].

إن من مزايا هذا الكتاب هو صدوره من باحث مسلم متخصص في الدراسات الشرعية في بلاد أعجمية، يظهر من خلال مراجعه إطلاعه الواسع على الأنثربولوجيا في فضاء الدرس الغربي، ولكنه في نفس الوقت يظهر تمسكه بالقرآن والسنة

---

[29] - صفوت مصطفى خلبلوفيتش، الإنسان في القرن (مدخل لدراسة الأنثربولوجيا القرآنية)، ترجمة: هدير ابو النجاه) دار السلام، ط1، القاهرة، مصر، 2022م، ص 19.

[30] - صفوت مصطفى خلبلوفيتش، الإنسان في القرن (مدخل لدراسة الأنثربولوجيا القرآنية)، ص9.

كمصدرين أساسيين لتحليله الأنثربولوجي، وعلى الرغم من أن تحليله لبعض القضايا قد اتسم بنوع من السطحية إلا إنه يظهر عمقا في تناول الكثير من القضايا والمسائل التي تطرحها الأنثربولوجيا القرآنية، مما يمكن عده خطوة في الاتجاه الصحيح من أجل أسلمة الأنثربولوجيا إلى جانب دراسة "إيزوتسو"، وذلك من أجل استصلاحها وأسلمتها بما يحقق الثراء والتنويع المنهجي اللازمين من أجل تجديد مجالات البحث والنظر في الدرس القرآني بوجه خاص وتحقيق تساند معرفي بين علوم الوحي والإنسان من جهة أخرى.

خاتمة:

في ختام هذه المدارسة العلمية تخلص الدراسة إلى النتائج التالية:

- لا ينبغي أن يفهم من هذه المصدرية الإلهية أن القرآن الكريم ما دام متصفا بذلك أنه فوق قدرة الإدراك البشري على الفهم من مقتضيات ذلك أنه لا يمكن استيعاب أحكامه وتشريعاته عند من يعتبرون أن القرآن الكريم ما هو إلا نسخة بشرية من الكتاب الإلهي.
- يوظّف «أركون" الأنثربولوجيا بغرض إقناع قارئه بفكرة أنسنة النص القرآني، وأنه تعرض لعوامل الحذف الأيديولوجي الذي مارسه الفاعلون الاجتماعيون حسب زعمه، وهو مما أدى إلى تحول القرآن الكريم من نص إلهي متعال إلى نص بشري الذي تعرّض للحذف والتغيير البشري خاصة بعد انتقاله من الحالة الشفوية إلى المكتوبة.
- إن هذا التحليل المعتمد على تأثير الأنماط الاجتماعية في تشكيل النص القرآني يستند بالأساس على أدوات التحليل من صميم الدراسة الأنثربولوجية، ولكنها تنتهي في نهاية المطاف إلى أنسنة النص القرآني، وعلى هذا الأساس يصبح التحليل الأنثربولوجي خاضعا للأيديولوجيا التي انطلق منها أركون وتيزيني وغيرهما من الحداثيين.
- على الرغم من النقائص التي تعتري الدراسات الأنثربولوجية خارج إيديولوجيا الحداثة إلا أنها تمثل خطوة في الاتجاه الصحيح من أجل أسلمة الأنثربولوجيا كما هو الحال في دراسة "إيزوتسو" و"خليلوفيتش" وغيرهم من الدارسين، وذلك من أجل استصلاحها وأسلمتها بما يحقق الثراء والتنويع المنهجي اللازمين

من أجل تجديد مجالات البحث والنظر في الدرس القرآني بوجه خاص وتحقيق تساند معرفي بين علوم الوحي والإنسان من جهة أخرى.

قائمة المصادر والمراجع:

- أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الأحكام، ضبط وتعليق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط1997،1 م، الخُبر، السعودية، ج2.
- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 2001م.
- توشيهيكو إيزوتسو، المفهومات الأخلاقية الدينية للقرآن، ترجمة: عيسى علي العاكوب، ط1، (دمشق، سوريا، دار نينوى، 2017م).
- سارة عبدو، المقاربة الأنثربولوجية للظاهرة القرآنية في الفكر الحداثي لمحمد أركون (بحث في المقدمات والمقاصد)، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الوادي، العدد: 1، المجلد 19.
- صفوت مصطفى خلبلوفيتش، الإنسان في القرن (مدخل لدراسة الأنثربولوجيا القرآنية)، ترجمة: هدير ابو النجاه) دار السلام، ط1، القاهرة، مصر، 2022م.
- طه عبد الرحمن، روح الحداثة (مدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية)، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 2006م.
- طيب تيزيني، النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة، دار الينابيع، د.ط، دمشق، سوريا، 1997م..
- عبد الرحمن الحاج، التحليل الأنثربولوجي اللساني للقرآن، صحيفة الغد الأردنية، عمان، الأردن، 2 سبتمبر 2008م.
- عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثربولوجيا)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، د.ط، دمشق، سوريا، 2004م.
- فارح مسرحي، الحداثة في فكر محمد أركون، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2006م.
- كمال الدين إمام، فقه السياق وحدود التأويل، أعمال الندوة الدولية (التأويل مقتضيات السياق وسؤال المرجعية) التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط1، 2014.
- محمد ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تقديم: علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت لبنان، 1998م

- محمد أركون، الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ترجمة: هاشم صالح، ط4، دار الساقي، بيروت، لبنان، 2007م.
- محمد أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقي، ط1، بيروت، لبنان، 1999م.
- محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ترجمة: هاشم صالح، دار الطليعة، ط2، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 2005م.
- محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ترجمة: هاشم صالح، ط3، ا لمركز الثقافي العربي، 1996م.
- محمد أركون، نزعة الأنسنة في الفكر العربي: جيل مسكويه والتوحيدي، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقي، ط1، بيروت، لبنان، 1997م.
- محي الدين محسب، اللغة والفكر والعالم، محي الدين محسب، اللغة والفكر والعالم، دراسة في النسبية اللغوية بين الفرضية والتحقق، د.ط، القاهرة، مصر، مكتبة لبنان ناشرون والشركة المصرية العالمية للنشر،1998م.
- مصطفى الحسن، الدين والنص والحقيقة (قراءة تحليلية في فكر محمد أركون)، ط1، (بيروت، لبنان، الشبكة العربية للأبحاث 2012م).
- مصطفى كيحل، الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2011م.